شعر يوسف غصوب

« القفص المهجور » ، و« العوسجة الملتهبة » ، و « جمال » على ضوء « الشعر الخالص »

بقلم سعيد عقل

لو كنت ممن يجترّون السنوات ١٩٢٠—١٩٢٧ ، لأعجبني من شعر يوسف غصوب في « القفص المهجور والعوسجة الملتهبة » أبيات تحسب في الأدب العربي بنا، وروحاً :

. . . مَدُّوا الدمقس لها ، طول الطريق ، على أواسنٍ من خيث الماء والسدرِ
. . . والمسر تسربُ من كوب ، من شفةٍ ، إلى التراقي كعقدٍ غير منضودِ

ولكنتُ أدلل ، بمثل هذين البيتين ، على أن بين يدي شعرًا عربيًّا لا غبار عليه ، وأروح وفي خلدي أني امتدحت الرجل ؛ ولكان نبا عن « ذوقي » كلُّ ما في الديوانين من « عجمة » ، تقتلنا الضاد . . . فأيُّ هذيان هو هذا البيت :

قربت ساعة اللقاء ، وساعت في دجى الليل كبرياء النهار ؟

أنا أفهمُ أن « تقربَ ساعةُ اللقاء » ؛ لأن العرب قالوا على هذا القرار ، أو — عفوكم — لأن هذا القول على غرار العرب . أما أن يكون « للنهار كبرياء » و« كبرياء تغيض . . فهو روحٌ غيرُ عربي :

« وإذا القلب لم يكن عربيًّا ، أوشك الشعر أن يشيع فساده ! »[1]
« وفضيلة الشعر مقصورة على العرب »[2] .

ولو كنت من المجترّين سنوات ١٩٢٧—١٩٣٠ ، يومَ مدرسةُ جبران والي ماضي تلهب « تجديدها » حماسة المتحمّسين ، لنظرتُ في ديوان يوسف غصوب آسفًا أقول ، وقد أمسكت في يدي ناصية الحقيقة : « نحن في القرن العشرين ،

١) شفيق جبري في الفرد مشرق .
٢) الجاحظ .

عصر العمل وخدمة الانسانية ، فأيّ حكمة في طبع ديوان ليس فيه حكمة واحدة ؟ » ورحتُ أقول متنبّياً : « أين غصوب من هذه الروائع :

والعدلُ في الناس يبكي الجنّ لو سمعوا به ، ويستضحك الاموات لو نظروا(١

واستدركُ ، وقد استشهدتُ ، من « الرابطة القلمية » بناثرها ، لأعود إلى « العميق العميق » من الحكمة :

أجاذا الشاكي وما بك داء ، كن جميلاً ترَ الوجودَ جميلا ! (٢

ذلك أن الشعر ، عهدَ انفتاح العيون على أدب جاليتنا الأميركية — المتأثرة أبدًا ببشري التوراة — كان حكمةً او نصيحة أو وعظة . كيف لا ، والمتخلفون لم يكونوا يطربون إلّا للحكم او يسامرون إلّا الحكماء . ونحن ، تلامذة المدارس يومئذ ، المطرّفين ، على يد الفرنسية والانكليزية ، في الأدب اليوناني ، او الفاتحين ، أقلّه ، العيون الظمأى على الأدب الاوربي الحديث ، كنا — واساتذتنا في العربية منْ هم ! — نُرغم على استظهار وعظةِ ابن الوردي « الرائعة » :

اعتزل ذكر الاغاني والغزل...

كنا نعرف ، على يد الفرنسية ، أن الشعوب في بدء امرها مزيجٌ من فروسية ووثنية ، من عواطف خشنة على أنها كبيرة ، وقصص حرب مبالغة على أنها واقعة ، واساطير آلهة على أنها جميلة ، تنعكس كلها في قلوب الموهوبين فتكون : الملحمة .

وتدخل الشعوبُ ، وقد خفتت جلجلةُ الخيل والاسنة ، مُدنَها الساكنة وبيوتَها الآمنة ، مطمئنةً على ذاتها تذكرُ وتحب وتحنّ ، فتَرِقُّ العواطفُ ، ويدق ما بينها فيكون : الشعر الغنائي .

وتغرق الشعوب في المدنية ، ويُباعد ما بينها وبين فروسية الجاهلية ، فتتضاءل العواطف الكبيرة ، ولا يعود يوقظ النفوس إلّا « رؤية » الأبطال الذين غابوا في ضباب الماضي فيكون : المرسح

---

١) جبران : المواكب

٢) ايليا ابو ماضي

وتهرم الشعوب ، سنّة البقاء ، فلا الملحمة تجدي ولا الغناء ينفع ، ولا المرسح نفسه يجدّ . الشعب يحتضر ، والشعب كالفرد كلاهما يلذّه ، وقد دقت ساعة الموت ، أن يسمع حكمة الدهر ويتوب ، فتكون : الحِكَم .

أجل كنا ندرس كل ذلك . لكن الزمام في أيدي الصحف السطحية واساتذتنا المتكلسين ، كالجبل الهرم ، على الحكمة .

كان الأمر طبيعيًا ، كان كل شيء في محله : الحياة في قلب الناشئة ، والاحتضار في الجيل المولي . وكان من الطبيعي أن يصفق الجيل المولي للحكمة وأن يتجه طلبة الأمس — قرّاء اليوم — إلى أدب الحياة ، أدب يأبى المواعظ ويأبى الحكم .

وما إن ننفلت من المدارس حتى يختنق أدبُ أميركة بعد ازدهار ، اللهم إلّا في العراق حيث لا جيلًا جديدًا يذكر إلى جنب هذه الوفرة من النفوس المولية .

ولو كنتُ من المجترّين السنوات ١٩٣٠—١٩٣٥ ، عهد التخمة من الحفلات التكريمية والتأبينية ، يوم التذهب « بالنقمة على المبخرة » يحسب تجديدًا وابتكارًا ، لكان لي وراء ديوان غصوب شاعر ولا كالشعراء ، ولقلت في الكتاب : « هو أول ديوان يظهر في العرب منذ الجاهليين إلى شوقي ويخلو من من المديح والرثاء . » هذا كأنّ غصوب أتى — من هذه الناحية — عملًا فذًّا .

ذلك أن العرب أعوزهم من المؤهلات للشعر قوة الخيال ورقةُ الشعور : الميزتان اللتان ترافقان الميتولوجيا[1] عند الشعوب فجاء شعرهم « صحافة »[2] .

الصحافي في عصرنا يمتدح زعيم الحزب ، والشاعر العربي يمتدح الأمير . الاول يقوم على أثر مأتم سياسي كبير ، بتعداد مناقبه نثرًا ، والثاني يسرد سجايا قيده نظمًا . ذاك يعمد في صحيفته إلى الدعاية لحزبه أو لنفسه ، وهذا يعمد في « قصيدته » إلى الفخر بقبيلته أو بنفسه . ذاك يصف من الحفلات المدنية

---

١) راجع للمؤلف : المرسح — المشرق المجلد ٣٤ الجزء الاول

٢) لامنس

ملاحة هذه وتلك من السيدات الارستقراطيات ، وهذا يشنب بهذه وتلك من نساء الحي . الاول ينهش في مقالاته كرامة خصومه السياسيين الذين لا يفتحون له صناديقهم ، والثاني يهجو بقصائده أميرًا قطع عنه دنانيره . و إذا اتفق أن يجيء مقال « صحافي الأمس » نظماً ، فلأن النظم سهل الحفظ يمكنه أن يجوز البلاد إلى البلاد فيؤدّي ما قصد بالصحافة من شهرة وتشهير . ولو كان للعرب مطابع وورق لما تكلفوا نظم هذه « المقالات » التي دُعيت « الشعر العربي » ، يوم كان الشعر منهم ما هي المطبعة منا .

و إذا يكون يوسف غصوب شاعرًا لا صحافيًا فلا نعدها له حسنة ، ونحن نأبى أن نجمل من الطعن على « الشعر الصحافي » مذهباً أدبياً تنضوي تحت لوائه ، وكأننا أتينا العجب العجاب .

نحن في مثل هذا الموقف نكتفي بالقول : « إن يوسف غصوب كان شاعرًا عهدَ ظلّ اكثر « شعراء » العربية صحافيين » .

واجماعاً أنا لا امتدح من غصوب أنه في بعض نظمه عربي الديباجة ، عربي الفكر ، كانا البقاء على الاسلوب الواحد حسنة ؛ وانه هجر الحِكَم ، كانا وجوده حيًّا في جيلٍ حي يحسب فوق المعتاد ، وأنه لم ينظم في المناسبات ، كانا الميل إلى الشعر دون الصحافة يعدّ اكثر من دعوة في قرارة النفس .

إن يوسف غصوب هو — لا اكثر ولا أقل — أول من نشر في العربية ديواناً يمكنُ نقده على ضوء الشعر .

وبعد ، ما قيمة غصوب ؟

أصدر الشاعر اللبناني ثلاث مأثورات شعرية : « القفص المهجور » ، و « القفص المهجور والموسجة الملتهبة » ، و « جمال » .

قد تذهب ، إذا تصفحنا الأثرين الاولين ، إلى ان « القفص المهجور » هو الديوان نفسه ينشر مرتين . على أن نظرة أدق ترينا ان بين الجزء الاول من الكتاب الثاني « والقفص المهجور » الأصلي فرقاً تهمنا معرفتهُ ، لأنه — على

صغره ــ صورة لظمأ الشاعر الى الرقي الفني .

شعر غصوب ؟ لا تنطبق نظرية التساوي في الجوهر[1] بين القصيدة ونفس صاحبها ، انطباقها على شعر غصوب ونفسه .

غصوب عالَمٌ صغير قلق ، عالم تحليلي (analytique) لا تأليفي (synthétique) ؛ لا يعرف ــ سنّة الحيّ من النفوس والفنون ــ ان يرى قرارًا ، فهو أبدًا حنينٌ إلى علُ ، واندفاعٌ إلى علُ ، وبلوغ شيء من عَلُ .

وكذلك قصيدته فهي قطعة خافقة ، تحليلية ــ لا تأليفية ــ في إتيانها على أجزاء الحالة الشعرية جزءًا جزءًا ، وهي أبدًا دأبٌ فنّي وعمل ظاهر الترقي ، وأخيرًا بلوغ شيء .

نسل ضوءًا على هذا القول :

إن مبدأ التساوي في الجوهر بين القصيدة ونفس صاحبها ــ وإن يكن المبدأ الذي لوحظ في كلّ الفنانين الكبار ، من صرامة رومانية كورنيل ، شاعر « الشعب الملك » ، التي رافقتها صرامة الطريقة في « الإنيد » ؛ إلى « دندية »[2] بودلير التي رافقتها « برناسية » الشكل في « أزهار الشر » ــ لا يُعدُّ مذهبًا خيرًا على الأدب ، الّا بقدر ما تكون عليه نفس صاحبه من غنىً .

أمّا غصوب ، موضوعنا اليوم ، فهو من الفنى ، في بيتٍ ، على الرغم من تواضع إثرائه ، اكيدِ الوجود ، ثبتِ الكيان ، مطلوقِ النوافذ على الآفاق .

غصوب ليس من تلك النفوس النادرة ، التي أُعطيت رسالة إنهاض عصر من العصور ، تشقّ أمامهُ آفاقاً بكرًا ، وتركزه ــ عفوَ العلم ــ في فلسفة راهنة ، حيث غبطة الركون الى وجودٍ ثبت ، او على الأقل إلى إيمان ثبت . لا وغصوب هو احدى النفوس التي تشاهد كل يوم ، على انها طليعة ، لا تنهض بجيل ولكنها تخلق في جموده شكًا ؛ لا تركزه في نعيم راهن ، ولكنها ترسل أمامه شعّةً على اللذة الأبدية . وبكلمة ليس غصوب ينبوعاً مستقلًا يكفي ، بجدّ

---

١) راجع للمؤلف مقدمة « المجدلية »

٢) مذهب يقوم على تأنق الروح والتصرف

ذاته ، يطاش الجيل ، لكنه مرحلة واحدة من الطريق القائمة على ضفة الساقية تنساب من الينبوع ، مرحلة من مراحل تمثل شعراء الحياة وتعوّض ، بمجموعها ، عن الينبوع الأكبر.

ولا يستخفّ أحد قيمة هـذا النوع من الشعراء ، الذين دعوتهم شعراء الحياة — مقابل شعراء الإيمان — فهم وحدهم يمكنهم ، بسهولتهم ولذة قراءتهم ، أن يزحزحوا الجيل عن ضلاله ، ويعوّدوا أعينَهُ الوميضَ الناعم استعدادًا للفجر الرحب وللإيمان الثبت.

قلت : غصوب عالَمٌ قلق يخلع على القارئ قلقهُ فيوقظ ، ويحثّ ، ويكتفي. أعني أنه يحرّك ، لا يوجد . ولا يهشه الأفق الذي تحطّ عليه أنت ، ما دام لا يؤمن بأفق بعد ، ويكتفي بأن رماكَ في الفضاء ، ورماكَ متحركًا قلقًا :

على غارب الاحلام . . . . ذهبنا . . . . فجزنا بحار النور . . . . .

إن هذه الفلّذ من القصيدة الاولى صور أمينة لهذا الصعود ، الصعود ليس إلّا . وإذا يقول في آخر القصيدة :

وتعبون أفرادًا لكم من نفوسكم عوالم . . .
على صلة بالروح . . .
فتجلى لكم ، قبل الممات ، عوامضٌ بحار ما لـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ فوق ما يُرى

فلا تظنّها منه استقرارًا ، ونسيتَهُ مهما « تجلى عوامضه » يضلّ « يحار به من لا يرى فوق ما يرى ».

*

وغصوب عالَم تحليلي ، فكأنّ نفسه قطع يمكن التعبير انيه كلًا على حدة ، فنرى الحياة عنده حالةً حالةً : فحنين ، وشـ ، ووحشة ، وجائزة ، وخيبة ، وخطر زوال . فكأن الحياة التي يدخلك أيانا غصوب حجرةً لا يعبق بوجهك منذ تفتح بابها ذلك الجوُّ الذي يريد الشاعر انزاله عليك ، شأنَ ما يحدث لك عند شعراء الإيمان ، بل يظلّ منها شيء هدئ عين ترتاح إليه نفسك ، حتى إذا أخذ الشاعر يطرّفُ بك على كل زاوية منها ، فوحانظ ، وضفصفة ، وبسط ، اكتمل لك جوّ القلق وكنت من الحجرة — وقل من الحياة — مفعورًا مثله بالجوّ الذي يريد . آخذ مثلًا قصيدته « جنة الأحلام » ، والعنوان يجسّدُ ذاته يغري النفوس

التأليفية . لكن غصوب ، غصوب التحليلي ، يقدّمه لي تحليلياً ، قطعاً قطعاً . فإذا أنا قد « طفتُ في جنة من الأحلام » ، وإذا معي « شقاء قلبي » ، وإذا أنا « في فسيح من الأرض » ، وإذا السماء « عُقدت بأوراق وزهر » ، وإذا « النور فائض » ، واذا اشياء واشياء تمرّ أمامي حتى يكتمل لي الجو التحليلي . . .

وشأن يوسف غصوب في القصيدة هو شأنه في البيت فبيته نفسه تحليلي ، ولهذا قلّما يخلو من النثرية إلى جنب الفلذ العجيبة :

على غارب الاحلام . . .

ألا ترى نفسك في هذه الفلذة من البيت الأول من القصيدة الاولى مغموراً بجوّ شعري خالص ؟ فتزاوج اللفظتين العجيب ، ولا عهد لنا به ، والألفات الثلاث الممدودات كالاحلام الطوال ، والحروف الحلقية كالغين والحاء ، والانفية كالميم ، والهادرة كالراء ، كل ذلك يؤلف جوًّا موسيقيًّا عجيباً يجعل لهذه الفلذة ميزة تكاد لا تجدها في العربية ، وتعدّ بين أرقى الفلذ الخالصة في غير العربية .

أما تمام البيت :

. . . في سانح الضحى (دهما) مع انثيال (نسمى) إلى المنى

فهو نثرية ، وتكفي هذه (الدهما) وهذه (النسمى) لتعكير ما انزلته الفلذة العجيبة . وإن في هذا البيت ، بريح من الخلوص والنثرية ، صورةً مصغرة لشعر يوسف غصوب .

وغصوب حنينٌ إلى عَلْ ، واندفاعٌ إلى عَلْ ، وبلوغ شيء من علُ . وتلك نتيجة القلق الذي رأيناه عنده ، وما من أحد يقلق لحالة ويريد بقاءها ، او يرضى استبدالها من مثلها .

وهكذا نرى في « جمال » ، آخر منتوج غصوب ، كثيراً من « الاستقرار » النفسي . « فجوع » نفسه الملحّ ، الذي تجلّى لنا في الاثرين الأولين ، ينتهي هنا الى مثل الايمان بشيء : بشيء « الجمال » أو بشيء « كمال الخليقة » بل « التوهم بكمالها » إذ لا تجد في هذه القصيدة — التي عليها أن تمثل جمال الحياة بما في الحياة من حسن وقبح — اشارةً الى عيوب في المرأة ، بل تجد الجمال اللامتناهي ، الجمال المطلق .

والقصيدة نفسها ــ كقطعة فنيّة ــ تنتهي ــ شأنَ نفس الشاعر المستقرة شيئاً ــ إلى مثل استقرار في الفنّ .

ذهبت إلى أن فنّ غصوب في هذه القصيدة تقدّم ولم يتبدّل ، لقد ملك زمامه وتركز واستقرّ ، وقلّ نثريّةً ــ وليس في الآداب شعرٌ خالص تمام الخلوص ــ وبكلمة ان فن غصوب توّج حنينه إلى عَلُ ببلوغ كثير من عَلُ .

نسهب قليلًا في درس جمالية[1] غصوب وتطوّرها :

تطالعنا منذ القصيدة الأولى « الشراء »فلذٌ كثيرة من الشعر الخالص كان بوسعها أن تسند جماع القصيدة لولا الطريقة التحليلية وما يتبعها من سهولة ــ وسبحان يوم صارت فيه «السهولة» هفوةً ، « والصعوبة » مزيّة ؛على أن لا يحمل السطحيون قولي محملًا لا أقصده . فإذا قال الجماليون المحدثون بأن الصعوبة من شروط الفن ، فلا يعنون بالصعوبة تلك التي تنتج عن الألفاظ الغريبة ، أو عن التركيب اللغوي المعقّد . الصعوبة التي اعني هي صعوبة الجوّ التي ترافق دوماً من يحاول أن يحدّ اللامحدود .

ومن الأدلة على هذه السهولة عند غصوب ، وقل هذه التحليلية أيضاً ، أنك تجد عنده من حروف العطف ــ تلك الحروف التي تؤذن بجمل مستقلة ــ الشيء الكثير. قال :

فجزنا . . فكان . . . وتلثنا . . . وحلّت . . . وطهّرنا . . . وأودعنا . . . ولطّف . . . وقال . . .

كل ذلك في أبيات قلائل من قصيدة واحدة .

ومن الادلة على التحليلية هذا الاسترسال في الوصف الذي يرافق طريقة غصوب حتى إلى « جمال » فيجعل أبدًا من الشطر الثاني من بيته نعتاً طويلًا . فهو يقول :

وحلّت بنا روح الإله ، فغابنا كسهبط وحي (فاض بالنور والهدى)
وتبتون للاوطان مجدًا مخلّدًا ، بشعر (قوافيه من القلب والنهى)

---

(١) Esthétique

وتقرب حتى تستحيل شرارة (تضيء مع الانوار في منبع السنى)

...

عرفتُ من قبل فيه صادحاً (في اناشيد الهوى يترسل)
أو فراشات (إذا ما كلفت نفسك اسرار الهوى ، تمثل)
مستديرات ، حيارى ، (كلما حرّك الغصنَ الهوا ، تتنقلُ)
وترى في النفس المثالي ، لما منظراً (فاضت لديه المقل)

ومثل هذه الشواهد كثيرة في ديوان غصوب . أمّا في « جمال » فنادرة.

أفاقت على فجر عجيب ونفحة سماوية (من راحتيك تضوعُ)
فنحن ضراعات اليك ، واعينٌ شواخص (في احداقهن وميضُ)

على أن هذه الواصفات الفضلة هنا تزيد المسند غنىً ، كما ترى في « سماوية من راحتيك تضوع » .

ومن الأدلّة على التحليلية أيضاً هذا التشبيه ، والتشبيه المسبوق بأداته . ففي الأربعة الأبيات الأولى من قصيدة في جوّ « الوحشة » ثلاثة تشابيه بثلاث كافات :

« كسراج . . . كالشموع . . . أو كعين . . . »

أمّا في « جمال » فلا تقع ، رغم رحابة القصيدة ، إلّا على تشبيه واحد :

. . . . . كانه شراعٌ بآفاق الخيال يسير

الانتباه. بنمت طويل ، استعمال أدوات التشبيه ، السهولة ، وبكلمة كلّ هذه النثرية في شعر غصوب هي ظواهر تمثلُ ما اعطته إياه طريقة العرب التحليلية . فإذا نلاحظ أن هذه التحليلية ، هذه النثرية ، كادت أن تتنحى تماماً في « جمال » ، ندرك أيّ وثبة قام بها فنّ غصوب.

على أن يوسعنا أن نرى في بعض قطع من شعره الأول تنبؤاً بهذه الوثبة . ففي « جنة الأحلام » أبيات تبلغ من الخلوص أرقى ما تصل إليه « جمال » ، وكدت أقول أرقى ما يصل إليه شعر أوربة الخالص :

هذه غابة الأمانيّ / هلّا رقدةٌ في ظلالها / بسلام /
تتلاشى انفاسنا / في هدوء / دونما حسرةٍ / ولا آلام /
(مثلما) تغفو الزهور شذاها / حانناتٍ / في جنة الأحلام /

إن « الهاء » من « هذه » فحروف اللين التي تبلغ الخمسة في الشطر الأول

وحده ، فالياتين العسليتين في « غاية وأماني » والقطع قبل آخر الشطر الأول بكلمة ، وقبل آخر الشطر الثاني من البيت الأول بكلمة ايضاً ، إلخ. إلخ. وهذه المحاكاة المتشوّقة بين هاءات « هذه وهلّا وظلالها » والمتلاشية بين الشين والسين في « تلاشى وأنفاسنا » والمغنية كالنغم في دالي « هدوء ودوغا » المسودتين بحرفي لين ، ثم هذا البيت الأخير المتصاعد نفساً في شطره الأول بين حرفي حلق خافتين (الهائين) ، المتهدّم شوقاً في شطره الثاني بين حرفي حلق أقوى (الحائين) ، كل ذلك يتزل عليك جوّ حالة من الغبطة تشتاقها الروح إلى حدّ التلاشي ، ويتزله جوًّا يبلغ من الخلوص حدًّا قصيًّا .

وبعد فيوسف غصوب قد رفعه حنينُه إلى عَلٍ ، من حالة « القلق » إلى شيء من « الاستقرار » . ودفع بفنه من عروض الشعر العربي المزيج من الشعر والنثرية وقل : المزيج من عنجهيّة الصحراء وصوفيّتها ، الى حدود جمالية الشعر الخالص ، اندفاعَ لبنان ، بعد الحرب ، من سُباته ، إلى الإيمان برسالته التي ، وإن لم تتخلّ عن الجزيرة اللاهية ، تكتمل عملها في حوض البحر المتوسّط الرحب الماضي ، والرحب الرسالة .

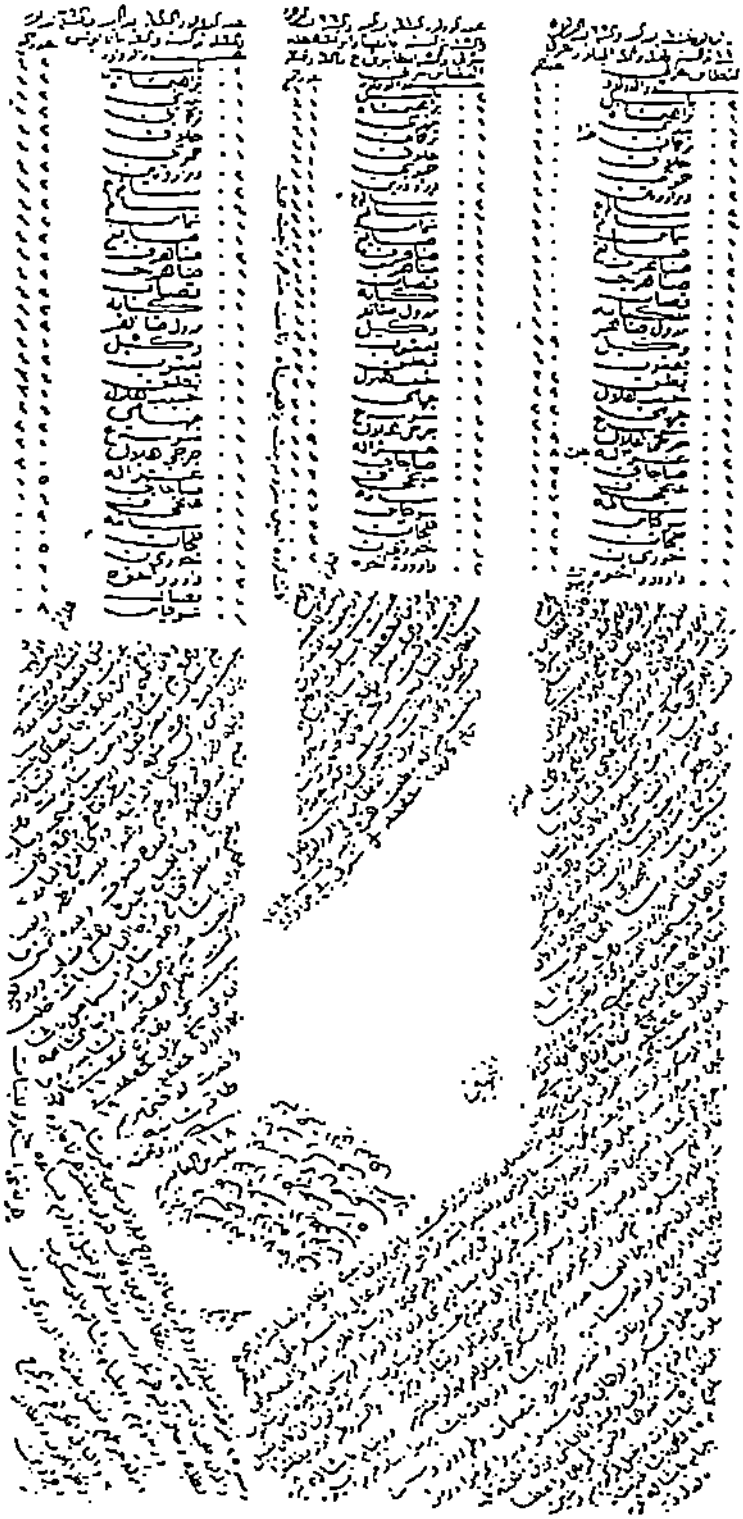

الرسم ١ : صفحة من المخطوطة